



تشهد بعض المدن السورية تفشي ظاهرة المسيرات الحاشدة التي تصحبها الأعلام الكبيرة، وتحفها الصور الضخمة، وتُردد فيها شعارات تبشر بحكم "الأسد إلى الأبد"!

وقد لجأ النظام إلى تسيير هذه المظاهرات مع وصول نبيل العربي، ولدى تعليق عضوية سوريا في الجامعة العربية، ومن ثم إعلان فرض عقوبات اقتصادية على رموز الحكم، وفي غيرها من المناسبات التي تزامنت مع تكثف بشرى ضخم في ساحة الأمويين بدمشق، وساحة سعد الله الجابري بحلب، وساحتى المحافظة والشيخ ظاهر باللاذقية، فضلاً عن ساحات أخرى في محافظة الحسكة والسويداء التي غصت جميعها بالطلاب الذين أغلقت مدارسهم، والموظفين الذين جهزت لهم الحافلات للمشاركة في التعبير عن: "دعم البرنامج الاصلاحي للقائد الخالد بشار الأسد، والتأكيد على الوقوف بوجه المؤامرة العالمية ضد سوريا قيادة وشعباً".

وتأتي هذه الظاهرة كنوع من التنفيذ عن حالة الاحتقان التي انتابت أقطاب النظام الحاكم لدى ترسيخ عزلتهم الإقليمية والدولية وإحكام الحصار الاقتصادي عليهم، وبدا ذلك الاحتقان جلياً في مظاهر التخطيط الدبليوماسي، والعنف التي اجتاحت السفارات العربية والتركية والأوروبية، فضلاً عن الهتافات الهستيرية التي بشرت "القائد الخالد" بحكم أزلي، وبشعب متماسك متضامن معه لخوض غمار الحرروب والموت في سبيله!

ونظراً لما تمر به سوريا من ملامح مرحلة انتقالية حاسمة، فإنه يتعين الوقوف عند ظاهرة: "مسيرات التأييد" واستشراف مآلها من خلال شواهد تاريخنا المعاصر، وكان الزعيم السياسي خالد العظم، قد وقف عند هذه الظاهرة في مذكراته وفاته طويلة؛ تحدث من خلالها عن مزاج الشارع السوري، واستنتاج أن هذه المسيرات لم تكن في حقيقتها إلا ذرير شئم على الزعماء الذين انخدعوا بها ورکنوا إلى الهتافات الصاحبة.

كيف تنظم مسيرات التأييد؟

تعرض خالد العظم في مذكراته لتفصيل ظاهرة الجماهير التي كانت تخرج في سوريا تأييداً لمختلف الزعامات، وفصل في عملية تنظيمها وحشد المشاركة فيها بقوله:

" Flemسيبة العرب ليست من فعل أعدائهم فحسب، بل من فعل زعمائهم وقادتهم، ومن فعل خطأ العرب في الثقة العميماء التي يولونها إياهم، وكأن الهتافات الصارخة التي يستقبلونهم بها نداءات استجاج واستعطاف، والزعماء تؤذنهم هذه الهتافات السازجة لأنها تخلق في نفوسهم كثيراً من الغرور والاعتزاز، وتوجد لديهم اعتداداً بالنفس واعتقاداً بعقبريتهم، وهم في الواقع

خالون منها، وكلما زادت الهتافات ازداد ظن الزعماء أن الشعب إنما يهتف إظهاراً لتأييده وموافقته على الخطة التي يسيرون عليها، ويغيب عنهم أن مظاهرات الولاء مهما كانت صارخة جارفة؛ فهي مُختلقة ومُفتعلة في أكثر الأحيان، فكثيراً ما حُملت الجماهير على ناقلات وجيء بها إلى المدينة تحت ضغط أفراد الدرك، وكثيراً ما رأينا شوارع المدينة تشعشع بالزيارات الكهربائية المضيئة وتزدهي بأقواس النصر العديدة، وهذا كله إنما أقامه أصحاب المحلات التجارية تحت التهديد والقسر، فتجتمع عشرات الآلاف من الخالق أمام مقر الزعيم وتظل تنديه و تستعطفه حتى يطل عليها من شرفة القصر، فينقلب التصفيق إلى مظهر من مظاهر الهستيريا، وبيبدأ الزعيم خطابه، وتمضي الجماهير على التصفيق غير سامعة ولا عابثة بما يقول لأنها قدمت للفرجة و"الهيصة" لا لتلقى الإرشاد والتوجيه، ويستمر الزعيم على الخطابة ترديداً وإطالة، وإبراداً لجمل جوفاء خالية من اللب والجواهر، مرصوفة التعابير لا ندرك منها سوى: "الوطن"، "الاستعمار"، "العملاء"، "فلسطين الشهيدة"، "الزحف المقدس"، "الثورة"، وغير ذلك من الكلمات المقصود بها إثارة الحماس واستمطار التصفيق والهتاف.

صحيح أن لهذه الخطاب مثل هذا المفعول، ولكن ليس لها في الواقع أثر في استرداد فلسطين، فلو كان لها هذه النتيجة الباهرة لكان حصلنا عليها بعد عشرات الآلاف من الخطاب التي أقيمت منذ عام 1947 حتى الآن.

وأكثر ما يزهو به الزعيم ويسلب له هو إقدام الجماهير على حمله على الأكتاف، وبالأكثر جر عربته أو رفع سيارته على الأعنق، والسير بالموكب فيما يرى الزعيم يتهدى في سيارته على أمواج الخالق، والهتافات تشق عنان السموات، والأكف تلتهب من التصفيق، ويوقن الزعيم أنه وصل إلى ذروة المجد، وأن تعلق الشعب به أصبح كتعلق العبد بالسيد.

"والجماهير عندما تتدفق كالسيل الذي يحمل ما يصادفه، وكالنار تلتله كل ما تقترب ألسنتها منه، هي قوة جارفة ورافعة تفعل فعل الآلة التي تحركها اليدين: تدفع وترفع، تهوي وتسقط، من غير وعي ولا تمييز، والشعب بمجموعه سازج ينطلي عليه الكثير من الأباطيل وتفعل فيه الدعاية فعلها، إلا أنها إذا زادت عن الحد المعقول وانصرفت إلى الخداع المفضوح، كان لها الأثر المعكوس: فالشعب مع طيب سريرته لا يخلو من يمعنون في التفكير بما يسمعون وما يقرأون وما يرون، وهو يخدع في بعض الأوقات بحيث يبدو بسكته أو بخنواعه كأنه مصدق لما يسمع، في حين أنه يتربص وينتظر الفرص لإبداء رأيه الصريح، أو هو يتمتهن في السر، ثم تنقلب هذه الغمامة إلى الانتقاد العلني، ثم إلى الانتفاض والثورة الجامحة عند سنوح الفرصة وجود القادة الموجهين الذين يأخذون بزمام الأمر في يدهم ويسيرون بالجموع الجارفة".

نهاية الاحتفاء بالسياسيين في دمشق

"ولهذا يحسن بالذين تستقبلهم دمشق بحفاوة وروعة أن لا تأخذهم عاطفة الغرور، فيظنون أنفسهم حائزين على مرتبة خاصة في نظر الدمشقيين، ولابعد الجميع أن أهل دمشق يستقبلون، ويستقبلون بحفاوة كل من وفد إليها، عدواً كان أو صديقاً، فليمتعن القادر أيًّا كان مقامه نظره بمشاهد نهر بردى الخلابة، لا أقل ولا أكثر، ليسعد بحفاوة الأهلين وليهنأ بها، ولكن حذار من الغرور ومن الاعتقاد أنه وحده صاحب هذه الحفاوة والعناء، فدمشق تقدم لزوارها الاستقبالات كما تقدم لهم الماء البارد والطعام الشهي والهواء النقي، وهذه أمور عادية، وهي من عادات الاحتفاء بالضيف وإكرامه انتقلت بالتوارث من جيل إلى جيل.

ومن جهة أخرى؛ لا بد من التنويه بأن أكثر الحكام الجدد أرادوا، زيادة في إظهار ترحيب البلاد بالقادم، أن يحملوا آلاف الفلاحين وغيرهم من الأهلين على ظهور السيارات حاملين أنواع "الشراطيط" هازجين مادحين، فيقف هؤلاء القوم في الصف على أرصفة الشوارع التي يمر بها الموكب، وذلك تحت أشعة الشمس المحرقة صيفاً، ومزاريب الأمطار شتاءً، وهم يرددون العراضات والهتافات التي يتعلمونها من منظمي الاحتفاء".

"وقد شاهدتُ الجماهير الغفيرة تستقبل الأمير فيصل وتحمله فوق الرؤوس، وسمعت أنها حملت عربة الجنرال غورو، ثم حملت الشهبندر من بعده، وبتح أصواتها بالهتاف لفوزي الغزي، وهاشم الأتاسي، وإبراهيم هنانو، وصحي بركات،

والداماد أحمد نامي، والشيخ تاج الدين الحسني، وجميل مردم، وسعد الله الجابري، وشكري القوتلي، وحسني الزعيم، وأبيب الشيشكلي، وأكرم الحوراني، وخالد بكداش، والرئيس عبد الناصر، ولم تخلي علي الجماهير بهتافاتها، خاصة في اللاذقية وحماة ودمشق، فهل ظهر تعلق هذه الجماهير واستمر؟

فالملك فيصل أخرجه الفرنسيون من دمشق فلم يرتفع صوت لمصلحته، واغتيل فوزي الغزي والدكتور الشهبندر، ومات الحسيني غير مأسوف عليه، وثار ضباط الجيش وقتلوا حسني الزعيم، ومات الجابري وهنانو وبركات ونسى ذكرهم، وهاجر جميل مردم إلى القاهرة وطمس اسمه، وهرب الشيشكلي إلى أوروبا وغضبت الناس عليه، وظل الأتاسي يعاني مراة ارتحال معاصريه والألم الناشئ عن سجن ابنه عدنان، أما أكرم الحوراني وخالد بكداش وأنا فقد أبعدنا عن ساحة العمل السياسي فلم يرتفع صوت باستنكار ذلك، ولم ينته أجل واحد من قادة سوريا وهو في أوج عزه، ولست أدرى إذا كان ذلك من قبل المصادفة المجردة أم من سوء الطالع".

نصيحة أخيرة

بعد استعراض مطول لتقلب مزاج الجماهير السورية في تعاملها مع الزعماء؛ كتب خالد العظم في أيامه الأخيرة بمنفاه في بيروت قائلاً:

"قبلاء هم الذين تخدعهم مظاهر الجماهير، ومحفلون هم إذا اعتمدوا على استمرار ولائها، فهي كالريح تعصف مرة من الشرق ومرة من الغرب".

د. بشير زين العابدين
أكاديمي سوري

1- خالد العظم (1903-1965): أحد أبرز السياسيين السوريين في الفترة الممتدة ما بين الثلاثينيات والستينيات من القرن العشرين، ترأس الحكومة السورية خمس مرات؛ أولها عام 1940 وآخرها عام 1962، وأُسنئت إليه حقائب وزارية متعددة في حكومات أخرى، كما رشح نفسه لرئاسة الجمهورية مرتين منافساً في إحداها شكري القوتلي وفي الأخرى ناظم القدسي، ثم اجأ إلى بيروت بعد انقلاب البغث عام 1963، وتوفي بها في شهر شباط 1965، وقد دون خالد العظم مذكراته التي نشرتها الدار المتحدة بعد وفاته في ثلاثة أجزاء.

المصادر: